

الصناعة الفضية والذهبية في بلاد الأندلس عصري الإمارة والخلافة

أ. بودالية تواتية*

تنوّعت الفنون الصناعية في بلاد الأندلس شكلاً ومضموناً وتجاوزت المعيقات القديمة في البيئة الإسلامية، وقد وصلت إلى حالة فريدة من التعبير التقني والزخرفي، خاصة تلك التي نفذت بالعمارة الدينية والمدنية، أو تزيين القصور بالأثاث الرفيعة خصوصاً إبان عصر الخلافة، وهي الفترة التي ازدهرت فيها كثير من الفنون بتشجيع من الحكام أو كبار رجال الدولة من أصحاب المناصب التي صنعت لأجلهم.

والصناعات المعدنية الأندلسية حتى القرن (3هـ / 9م) كانت متنوعة وعديدة قامت على أصول مشرقية وأساليب فنية كانت سائدة في الأراضي التي سها المسلمون، لذلك ظلت نفس الفنون تمارس في ظل الفتح الإسلامي للأندلس بالرجوع إلى الحضارات القديمة التي سكنت هذه البلاد وتركت آثارها عبر الزمن. بينما اعتبر منتصف القرن (3هـ / 9م) نقطة تحول عميقة في النشاط الصناعي الذي بدأ يتحرر من مقومات وتعايير قد استمد أصولها من الحضارات السابقة القائمة في البلاد المفتوحة، أما القرن (4هـ / 10م) فقد كان قرن النبوغ والإبداع الأندلسي الفريد بتجديداته التقنية والزخرفية.

وإن اختلف علماء الآثار في تحديد نصيب كل من الفنون القديمة في بناء الفن الإسلامي الأندلسي الحديد الذي لم يأخذ كل ما صادفه من فنون الحضارات من موضوعات وثقافات تلك الشعوب بل وقف فترة طويلة في عملية استجماع واختيار ومزج، ولقد دار الجدل طويلاً بين الباحثين المتخصصين على مدى أصالة الصناعة الأندلسية أمثال مانويل جوميث مورينو، وتوريس بلباس، والسيد عبد العزيز سالم وغيرهم في دراسة البقايا الأثرية والترجيح لأصولها بعد معالجتها، وأمكن الخروج بحقائق تثبت أنها موروث لمزيج ثقافي وحضاري لمختلف الحضارات من الرومان والقوط واليونان وبلاد العالم الإسلامي.

* جامعة معسكر - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب واللغات - قسم العلوم الإنسانية.

وتوزعت الإبداعات الصناعية المجسمة كغيرها من الصناعات المعدنية الإسلامية على عدد من المواد المعدنية، منها البرونز والحديد والنحاس والذهب والفضة. واشتملت على القناديل والأباريق والمباخر وكستبان، وتمائيل الحيوانات والطيور، والصناديق المتعددة المهام والأواني وغير ذلك. وهذه التحف المعدنية الرفيعة والثرينة الخاصة بحقبة التواجد الإسلامي بإسبانيا موزعة اليوم في عدد كبير من متاحف العالم في كل الكنائس والأدبة في إسبانيا وفرنسا وصالة إيطاليا. وهي شاهداً على مدى روعة الصناعة الأندلسية. أما التحف المنفذة من الذهب والفضة، فقد اقتصرت في الغالب على الحلي، التي أخذت النصب الأكبر من إبداعات الفنانين والصناع في بلاد الأندلس التي اعتبرت فيها صناعة الحلي من الفنون الرفيعة الشأن.

1- العوامل المؤثرة في الصناعة الفضية والذهبية

أ- وفرة المواد الخام

اشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن الفضية والذهبية التي انتشرت مناجمها في عدد من المدن فقد توزعت الفضة في كل من كرتش، ومرسية، والبيرة، وقرطبة، وتدمير، وشنترة⁽¹⁾. أما معدن الذهب فيوجد في مناطق متفرقة في كل من شنت ياقوه، والبيرة، وغرناطة، وساحل أشبونة، ووادي لاردة⁽²⁾. ويبدو أن هذه المعادن كانت تتوافر بكميات هائلة فتوزيعها في مختلف المناطق يبرز مدى نشاط الإنتاج الصناعي وغزارته؛ حيث كانت الاستفادة أكثر في التحف الثمينة والمنشآت العمرانية. كما أن مناطق استخراج المعادن هي مناطق في الغالب آهلة بالسكان، وبالضرورة سيرفق هذا بعامل وجود اليد العاملة في هذا المجال الحرفي.

ب- مستوى المهارات الحرفية

لقد ساهمت حركة الازدهار والانتعاش المدني والاقتصادي، واهتمام الحكام بالإنشاء والتعمير، بظهور تجمعات سكانية خاصة في قرطبة، وطليطلة، وإشبيلية، والزهراء. وتعتبر هذه المدن نماذج لأكبر تجمع من الصناع والحرفيين وقد شكل هؤلاء مختلف الأجناس من عرب، ويهود، ونصارى، وصقالبة، ومستعربين، الذين تجمعهم روابط اقتصادية واجتماعية، كل في مجال تخصصه وتؤثر بشكل مباشر في نمو الصناعة. لقد أسهم هذا التحول العميق في التوازنات الاجتماعية إلى تحفيز الحرفيين على تنمية قدراتهم العملية لتحسين

الأساليب والتقنيات المستعملة في مجال الصياغة، ويبدو أنّ التقدم الواسع في الصناعات الأندلسية يرجع بالدرجة الأولى إلى مدى استيعاب القوى العاملة بضرورة إتقان الصنعة قبل ممارستها.

وفي ذلك أشاد كل من ابن غالب⁽³⁾ وأبي حامد الغرناطي⁽⁴⁾ إلى مدى خبرة الأندلسيين الصناعية وتفوقهم في هذا المجال الصناعي بقولهما: "صنيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن التصورية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاسات النصب في تحسين الصنائع". وأضاف القزويني⁽⁵⁾ "ولأهلها إتقان في جميع ما يصنعونه". وروى ابن الخطيب⁽⁶⁾ عن الصناعة في عهد دولة هشام المؤيد في الأندلس "والصنائع تجل"، وفي موضع آخر قال "ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم وينازعون به المشرق من بضائعهم لضاق الكتاب عنه"⁽⁷⁾. ولم يبالغ الشاعر يحيى الغزال الذي عايش فيها خمسة أمراء من أموي الأندلس من الأمير عبد الرحمن بن معاوية إلى محمد بن عبد الرحمن، عندما وصف الصناع في هذين البيتين⁽⁸⁾:

رأيت الرجال بهمتهم وأحسابهم في حربهم
أكبّ رجال على تجرهم وأعمالهم وصناعاتهم

ونتمن تخريج الباحث الطاهري أحمد⁽⁹⁾ الذي توصل إلى أهمية ودور المهارة الحرفية التي يشترط توفرها في كل صانع في المجال التقني للرفع من الإنتاجية والجودة على السواء، والحفاظ على سيولة المنتجات في الأسواق.

ت. دور السلطة الأموية في دعم الصناعة الفضية والذهبية

من دون أدنى شك فإنّ لغزارة الثروة المعدنية أثرا كبيرا في تنويع الصناعات وتطورها؛ إذ كان للحكام دور في دعمها وتنميتها وتشجيعها. ولأجل ذلك خصصت السلطة اهتماماتها في الأداء الإنتاجي بتشجيع دور الصناعة في مختلف المدن الكبرى لتنمية الصناعة الفضية والذهبية، ولدعم الحياة اليومية من متطلبات القصر وسكانها من العامة من عدد وآلات. وباعتبارها ملكا للخاصة من الأمراء والخلفاء فقد أنشأ الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-366هـ/912-961م) عددا كبيرا من دور الصناعة في المدن الأندلسية، فتخصصت دار صناعة الزهراء لصناعة الحلبي⁽¹⁰⁾، وتحولت دار صناعة قرطبة إلى إنتاج التحف المعدنية وغيرها⁽¹¹⁾. ومن هنا يظهر أنّ الصناعة الأندلسية خضعت لتوجهات اقتصادية تابعة للسلطة الأموية آنذاك والتي برهنت على تفوقها الصناعي، فأجزلت العطاء الكثير لكل صانع حاذق من مختلف البلاد.

واستمر اهتمام السلطة بالثروة المعدنية بغية المحافظة على النقد كأساس المعاملات التجارية، وذلك بسبب مشكلة تعرضت لها الأسواق آنذاك تتمثل في تزييف العملة واحتكار انوار الناقلين على الدولة للمناجم، وإجهاض الطاقة المعدنية، كما فعل ديسم بن إسحاق "عندما ملك لورقة، وغلظت شوكته، وكثر أتباعه وأعلن العصيان وحارب جيوش الإمارة، وعثر على معادن الفضة بتمدير، ف ضرب الدراهم على اسمه" (12). ومنه فإن دور السلطة القائمة في هذا المضمار قوي جدا في التصدي لعمليات الاحتكار.

وباعتبار السكة من التنظيمات الإدارية التابعة للسلطة الأموية وشارة من شارات الملك فقد نقل الخليفة عبد الرحمن الناصر دار الضرب إلى مدينة الزهراء الجديدة عند سكناه بها، وعطل السكة بقرطبة وأغلق أبوابها (13). وركزت السلطة على ضرورة التنظيم المالي من خلال مهمة المحتسب، إذ تنبه الفقهاء في مراقبة وتعقب العمل المتداول في المدن الأندلسية، بالنسبة لتزييف السكة من الدراهم والدنانير وخلطها بالناحس، فإذا ظفر بصاحبها أمر أن يطاف به في الأسواق لينكله ويشرد به من خلفه لعلهم يتقون (14).

2- لمحة عن الأحوال العامة لحرفيو الصياغة

لقد شكلت حرفة الصياغة مصدرا رئيسيا لتزويد الأسواق بمختلف التحف الفضية والذهبية خلال فترات الاستقرار السياسي والاقتصادي، كما زعزعت القوى العاملة من القائمين على الصناعة المعدنية من حمالين وعمال المناجم أو بين المختصين بصناعة المنتجات الفضية والذهبية الأشكال التنظيمية لهذه الفئات. لذلك تكونت فئة من الحرفيين المتخصصين نعتهم ابن حيان بقوله: "أهل الصناعات السلطانية" (15). وخصصوا لهم في دور الصناعة بالقصر مناصب حرفية كصاحب الصياغة جوذر الفتي الكبير ومرسن الفتي الكبير ودرى الصغير (16). فقد عثر بمدينة الزهراء على صندوق من الفضة صنع بأمر من الخليفة الحكم المستنصر بإشراف الصانع جوذر الفتي عام (359هـ/970م) (17). كما توسع يهود قرطبة في اشتغال حرفة الصياغة (18).

أما عمال المناجم فكان أصحابها يمارسون أغلب الأعمال والأشغال في ظروف صعبة، فحول حصن أبال شمال قرطبة، حيث معدن الرقيق والزنجفور، يتوزع على أعمال التعدين أزيد من ألف عامل، ففريق ينزل إلى باطن الأرض لقطع الحجر المعدني، وفريق يتولى قطع الحطب لإحراقه، وفريق يعد أواني سبك الرقيق، أخيرا هناك فريق يشتغل بالأفران لإنجاز عملية الإحراق (19). نضمن ما ذهب إليه الباحث الطاهري أحمد فإن

أمر هذا المنجم يتطلب عددا لا يستهان به من الصناع إلى جانب توفر تقنيات متطورة لعملية الاستفادة من هذا المعدن⁽²⁰⁾.

وعموما فقد كانت الصنائع خلال عصري الإمارة والخلافة قد شهدت نوعا من التنظيمات الحرفية أو نظام الأصناف والتكتلات الصناعية التي عرفت بأصحاب الصناعات⁽²¹⁾، لتسهيل حركة النشاط الاقتصادي والإشراف المباشر عليها.

3- طرق التصنيع

إنّ عملية تحويل المادة الخام إلى معدن صاف يتطلب تقنيات ومنشآت خاصة كإنشاء الأفران لصهرها وآلات لنقلها إلى دور الصناعة، ومن ثم تحويلها إلى منتج للاستغلال. فقد حظيت الأندلس بشروات معدنية هائلة تتمثل في الرصاص والنحاس والقصدير والفضة والذهب، غير أنّ المصادر المعول عليها في هذا البحث لم تشر إلى طرق استغلال تلك المعادن. وقد تنبه إلى ذلك الباحث ليفي بروفنسال عندما أخذ على المؤرخين القدامى اقتصرهم على ذكر المناجم دون ذكر أساليب الاستغلال، غير أنّه أمكن معرفة فن الصناعة المعدنية من خلال إحدى الدراسات⁽²²⁾ التي فصلت في ذلك؛ إذ تتطلب البراعة في معالجة التشكيل الصناعي للمعادن الذي يستلزم طرق صناعية دقيقة ومتطورة كالسبك والنقش والطرق والضغط والتكفيت.

فأما السبك Casting ما كان غالبا في معدن البرونز أو الحديد أو النحاس، ويتم ذلك عن طريق قوالب محفورة حفرا غائرا يصب فيها المعدن وهو في درجة الانصهار، ثم يترك ليبرد فيأخذ السطح الملامس للزخارف شكلها.

واستخدم النقش Engraving على التحف بعد تشكيلها وذلك بأن تحز الزخارف على سطح المعدن بألة حادة لإظهار الزخارف، ثم تتبعها عملية الطرق أو الضغوط Embossing وذلك بأن ترسم الزخارف على الألواح المعدنية اللينة من النحاس أو الذهب أو الفضة، ثم تطرق هذه الزخارف من الخلف طرقا خفيفا حتى تبرز على السطح وتصبح مجسمة.

بينما تقوم طريقة التكفيت Incrustation على أساس زخرفة سطح الألوان النحاسية أو البرونزية بمعدن آخر، وتحز الرسوم بمطرقة خشبية، وتسمى العملية بالشق، وتملأ الشقوق بأسلاك رقيقة ويترك عليها بمطرقة خشبية.

ولعل صناع الأندلس استخدموا الطرق المحسنة في الإنتاج، وعلى أيديهم تم ابتكار أدوات التصنيع وملحقاتها الأساسية، ولذلك بلغت الصناعة الأندلسية تقدماً لم تشهده البلاد قبل الفتح الإسلامي. وحظيت بعض الصناعات بشهرة في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

4- الصناعة الفضية والذهبية

الفضة مادة فنية من أصل رفيع تمتاز ببياضها، وقد أبقى لنا الزمن مجموعة من التحف الفنية المصنوعة من الفضة من العصر الأموي في بلاد الأندلس. كما اشتملت الصناعة الفضية والذهبية على توفير العملة وضرب السكة. فمن أبرز سمات الاقتصاد الإسلامي في هذه البلاد حماية الحياة المالية، وبذلك بدأت الحاجة المستمرة للسيولة النقدية لمقابلة المزيد من النفقات في عمليات البيع والشراء، لأنَّ كلَّ النقود المتداولة بين النَّاس قديمة تقتصر على النقود الرومانية والقوطية⁽²³⁾. ومن ثمة جعل السكة كان أمراً إجبارياً مما يخدم مصلحة السلطة الأموية، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206-232هـ/821-846م) أول من اتخذ بقرطبة السكة، وقام فيها بضرب الدراهم المنقوشة باسمه على نحو ما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزنا ونقشا، فلم يكن بهذه المدينة دار ضرب منذ فتحها المسلمون⁽²⁴⁾، وتوسع عدد دور الضرب بهذه البلاد إلى أن بلغ أربعة عشر⁽²⁵⁾.

واستخدمت الفضة في العمارة الأندلسية، ويظهر ذلك في كساء مقصورات جامع قرطبة⁽²⁶⁾، وتزيين حشوات المنبر وصناعة ثلاث ثريات فضية⁽²⁷⁾، وقد استعملها الخليفة عبد الرحمن الناصر في بناء مدينة الزهراء حين بنى قبة قراميدها من فضة⁽²⁸⁾.

وكشفت إحدى الروايات التاريخية عن وجود عمائر تبني من الفضة، التي وصفت بأنها غاية في الجمال والإتقان. ففي عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر بني قصر من الفضة الخالصة، وأهداه إلى السيدة صبح البشكنسية زوج الخليفة الحكم المستنصر وأم ولده هشام، وعبر ابن عذاري عن هذه الهدية بقوله: "فانه استعمال هذه المرأة بحسن الخدمة وموافقة المسرة وسعة البذل في باب الإتحاف والمهاداة، حتى إستهوها وغلب على قلبها وكانت الغالية على مولاه، وابن عامر يجتهد في برها والمثابرة على ملاطفتها، فيبتدع في ذلك ويأتيها بأشياء لم يعهد مثلها، حتى أصاغ لها قصراً من فضة وقت ولايته، عمل فيه مدة وأنفق فيه مالا جسيماً فجاء عجيباً لم تر العيون أعجب منه"⁽²⁹⁾.

ومن التحف الأندلسية الموزعة على المتاحف المختلفة والكنائس وتؤرخ لعصر الخلافة الأندلسية صندوق كاتدرائية جيرونا⁽³⁰⁾، وهذا الصندوق مصنوع من الخشب المغطى بصفائح الفضة، قاعدته مستطيلة الشكل طولها 39 سم وعرضها 23 سم، وتزدان صفائح الفضة بزخارف من التوريقات النباتية من عصر الخلافة تتخذ أغصانها الملتفة شكل زهرات. ويحتفظ الصندوق بمفصلتين منقوشتين بطريقة الطرق، ويحمل الصندوق كتابة كوفية تقرأ فيها " بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم أعبد الله الحكيم أمير المؤمنين المستنصر بالله مما أمر بعمله لأبي الوليد هشام والي المسلمين، تم على يد جؤذر فتاه⁽³¹⁾". وفي متحف قرطبة قنينة من الفضة لها غطاء متصل بها بواسطة سلسلة، وهي تزدان بزخرفة عملت بها بطريقة الطرق، قوامها عقود حدية الشكل وزخارف نباتية، وقد عثر على هذه القنينة في قرطبة مع قطع من العملة التي ترجع إلى عصر خلافة قرطبة⁽³²⁾.

وكشفت رواية ابن كردبوس عن استعمال الفضة في صناعة الأسلحة في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (238-273هـ/852-886م) بقوله: " فأقام واليا أربعاً وثلاثين سنة وفي أيامه انتهى جيش المسلمين عنده مائة ألف فارس، منهم عشرون ألفاً بدروع الفضة"⁽³³⁾.

أما معدن الذهب فقد استخدم في تزيين محال القصور، وكانت مجمل التماثيل مما تنتجه دار الصناعة بقرطبة. وقد روى ابن الخطيب عن تفخيم بناء مدينة الزهراء في عهدة حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر أنه جلب حوضاً منقوشاً بالذهب، والثاني منقوشاً فيه تماثيل لا قيمة لها. فوضعه في بيت المنام من المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وكان عليه " اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدّر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة، صورة أسد بجانبه غزال وإلى جانبه تمساح، فيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك ونسر، وكل هذا من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها"⁽³⁴⁾. واتخذ من قبة المسجد قراميد مغطاة ذهباً وفضة، وأنفق عليها مالا جسيماً، وقد مدّ سقفها بماء صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة مستلب الأبصار. وجلس فيها إثر تمامها⁽³⁵⁾. ويعتبر المحراب بمسجد قرطبة من أجمل العناصر الرخامية المعمارية والزخرفية المطعمة بالذهب، وقد وصف توريس بلباس إلى هذا الوصف أنّ المحراب تعلوه " خصبة رخام قطعة واحدة مشبوبة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان"⁽³⁶⁾.

وكان الأندلسيون أهل براعة في صناعة المنسوجات ووشي الملابس الفاخرة بخيوط الذهب والفضة، وكان بالأندلس صناعة أنيقة للمشغولات الذهبية، فقد شغلت المنسوجات الحريرية المطرزة بالذهب مكانة

هامة لدى السلطة الحاكمة في مجال الفخامة والأبهة. ولدى مانويل جوميث مورينو⁽³⁷⁾ صوراً من النسيج المطرزة بالذهب تعود إلى العصر الخلافي، أولها تحفة رائعة محفوظة بمتحف بلنسية، عبارة عن قطعة من طراز عرضه 19 سم، مكونة من زخارف حيوانية ونباتية من النوع القرطبي البحت، وأرضيتها بصفة عامة من خيوط الذهب.

أما التحفة الثانية فهي من الحرير المطرز أحكمتها الإبرة النسائية وهي بطانة لغطاء صندوق قد جلب من إشبيلية سنة (408هـ/ 1017م) يرجعها المؤلف نفسه إلى عهد سابق، وهذه القطعة مزينة بتريعات تشغلها أشكال من الوعل ونسر ناشر جناحيه وبطة تتكرر في غير نظام، هذا على زخرفة من الدوائر المتلاصقة وزهيرات تملأ اثنتين من التريعات، ومادتها من الحرير الملون وخيوط الذهب⁽³⁸⁾.

واشتهرت الأندلس بالصناعات الجلدية المطرزة بالذهب والفضة باعتبارها من الصناعات الضرورية المتصلة بالأثاث والأدوات المنزلية وغيرها من استعمالات الحياة اليومية. وكان بمدينة الزهراء مشغل يعمل فيه مئات الصناع يقومون بصنع السرج وعدة الركوب المطرزة بالذهب والفضة⁽³⁹⁾. ولم يستخدم الجلد الأندلسي فقط لصنع الأحذية والثياب وتجهيز الفرس والمفروشات، فالجلود الذهبية والمزركشة قد صنعت من أجل تجليد الكتب⁽⁴⁰⁾. ولعل أبرز مظهر في هذا النص وجود طبقة عمالية تختص بالتطريز والتذهيب تتصل مباشرة بالسلطة الحاكمة لأداء مهمتها الإنتاجية.

5- صناعة الحلي الفضية والذهبية

إن الحلي الأندلسية الخلافية مثلت في مجال الصياغة فنا معدنيا لا مثيل له لوجود الذهب والفضة في مناطق متفرقة من أنحاء الأندلس كما سبق الذكر، إلا أن المصادر لا تمدنا بمعلومات على صياغة الحلي الفضة، إلا ما ذكر عند أحد المؤرخين المحدثين أنها كانت تشكّل وفقاً للأساليب القوطية⁽⁴¹⁾ التي كان يحتفظ بها النصارى⁽⁴²⁾. وهذه الندرة والنقص يمكن تفاديه بفضل عثور الباحث مانويل جوميث مورينو على كنوز نفيسة، فقد اكتشف في الزهراء على كنزين محفوظين في متحف بلنسية، أحدهما كنز لوشة دفن إبان ثورة قرطبة والثاني اكتشف في جروشة بإقليم المرية⁽⁴³⁾.

أ- الحلي الفضية

أمدنا الباحث مانويل جوميث مورينو بوصف لكنز لوشة⁽⁴⁴⁾ من معدن الفضة يشمل على زوج من الأساور الفضية من النوع المعتاد وهما مصنوعان من الأسلاك المضفرة في أطرافها بلوطات (مغالق)، وتتألف

أساور لوثة من خمسة أسلاك ملتفة معا على نحو لولي ومضفرة بحيث تؤلف دائرة طول قطرها الداخلي 6سم، وفي الأطراف رأسان صغيران متلاحمان كرأسي حيتين مع قفل في الفمين لإغلاقها⁽⁴⁵⁾.
وعثر في كنز جروشة على خلخال أسطواني الشكل، وهو من قطعتين ملتحمتين وصفيحتين رقيقتين، في الداخلية نقش نصه: "بركة كاملة" والخارجية محلاة بأشرطة من أقراص بارزة بالطرق بحيث تترك فراغات تملؤها أزواج من الأرناب البرية التي تعدو، ثم مناطق بها ملفات نباتية رقيقة ملبسة فوق أرضية بيضاء، أما بقية الأجزاء فمذهبة⁽⁴⁶⁾. ويظهر أنه ثمة تشابه في الطريقة الفنية لزوج من الأساور في شكل نصف أسطواني معقود، وهي ملتحمة وقفلها يشبه قفل لوثة، وزخرفتها المطرقة تؤلف براعم ملبسة ومذهبة، والصفائح التي تغطي القفل يظهر فيها النقش الذي في الخلخال بحروف كوفية⁽⁴⁷⁾. ويكمل الجزء المحفوظ من هذا الكنز حبات عقد وكرات صغيرة ذات صفيحة رقيقة جدا ومطرقة ولبسة فوق أرضية مذهبة تتكرر فيها أشكال صغيرة من الأسود والطواويس والغزلان والأرناب، يتدلى من فمها أو منقارها ورقة نباتية داخل دوائر متشابكة⁽⁴⁸⁾.

ب- الحلبي الذهبية

لقد أشارت إحدى الروايات⁽⁴⁹⁾ إلى أن الذهب كان يساق من بلاد المشرق بكميات كبيرة حيث شهدت قرطبة في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم تدفق تحف وذخائر ونفيس الجواهر، وكان التجار العائرون على هذه الحلبي والصياغة يقدون إلى أرض جزيرة الأندلس بخاصة قرطبة لبيعها للأمرء والخلفاء وذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم وهب لجارية من حظاياه عقد جوهر من أعلاق الخلافة العباسية بالمشرق، قيمته عشرة آلاف دينار، كان يسمى الثعبان⁽⁵⁰⁾ ونعته ابن عداري بعقد الشفاء⁽⁵¹⁾.

أما في مجال الدراسات الحديثة فقد قدم الباحث مانويل جوميث مورينو دراسة شاملة ووافية للآثار المتبقية من الحضارة الأندلسية، حيث كشف عن أصناف الحلبي من كنز لوثة في الأندلس وطريقة صنعها بقوله "طريقة صنعها بسيطة، قد اتخذت في أساسها من صفيحة رقيقة مطروقة في بعض الأحيان تتراكب فوقها باللحام أسلاك مضفرة ترسم منها دوائر وأسلاك أخرى تحشوها دون ضفر، وهي مقصوفة في شكل لولي مزدوج تحليها أقراص نصف كروية، منها الأملس ومنها المثقوب ومنها المخطط، وفي الوسط تحاوي كانت تملآن بالأحجار الكريمة التي تحل محل القطع الزجاجية في الحلبي الفقيرة، وأشكالها بين

مستدير وبيضاوي، وألوانها بين الأبيض والأصفر والأخضر. وعثر على عقود مؤلفة من أشكال أسطوانية صغيرة من الزجاج الأخضر واللؤلؤ، بين حبيبات من الذهب⁽⁵²⁾.

6- القيم الجمالية

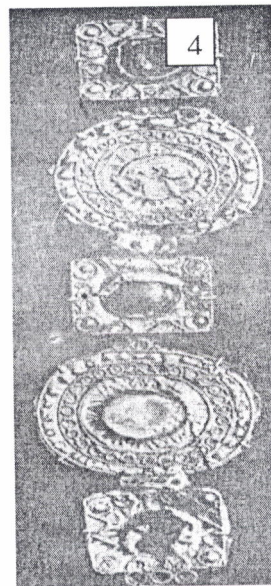
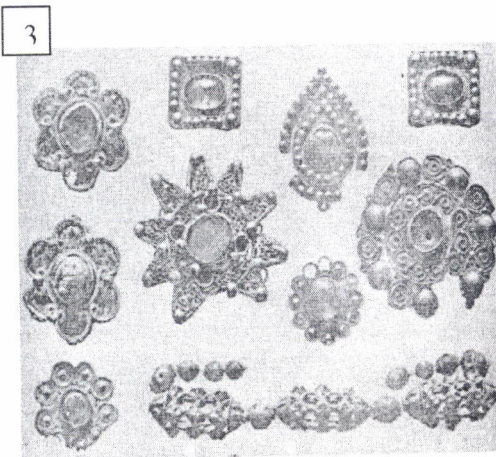
وتبعاً للإشارات السابقة من تنوع التحف الفنية فقد اتسم فن الصناعة الفضية والذهبية في بلاد الأندلس بالجمع بين الإتقان والبراعة، فكان يتميز بالكفاءة العملية والجمال الزخرفي الذي يمكن اختصاره في ستة عناصر: الخط العربي، والأشكال الهندسية، والرسوم الطبيعية، والحيوانات، والضوء والماء. وكلها عناصر جالبة للراحة النفسية والهدوء أكثر من كونها تعتمد على الضخامة المعمارية حيث ترتفع القصور الشائخة كقصر الزهراء وقرطبة والزاهرة بكل أنواع الرسوم والتماثيل، ودور العبادة الضخمة المزينة كمسجد قرطبة وبخاصة في فترات الازدهار الحضاري، فلم تكن هذه الاتجاهات التقنية هي الهدف، بل حرص الحرفيون والصناع سواء كانوا مسلمين أو من أهل الذمة على تشكيل منتجاتهم الفنية بشتى أنواع الزخارف وصياغتها بأشكال فنية رائعة التي تعتبر من أساسيات الزخرفة الإسلامية في كنز جروشة ومحراب مسجد قرطبة وقطع المنسوجات المطرزة والتماثيل الحيوانية مثلاً. كما أنّ البيئة الأندلسية جعلت لصياغته الفنية ملامح مميزة. وتنكشف أسرارها فيما أدرجه الصانع من تطعيم وتكفيت بالذهب والفضة والحفر والترصيع وما إلى ذلك، وحقق بذلك أروع المنجزات ذات زخارف رائعة تناظر وتوازي في جمالها وبهائها بلاد المشرق وبيزنطى. فما حل القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد حتى أضحت قرطبة منافسة للدول البيزنطية في فنون صانعي الذهب والفضة، وصانعي الحلي والجوهرات؛ وبفضل ما خلفته تلك المرحلة من آثار ومشغولات فاخرة، أمكن معرفة المستوى الفني والتقني الرفيع للصناعة الأندلسية. وإن كانت الظاهرة الجديرة بالتسجيل هي أنّ عدداً من التحف الصناعية لم تختلف عن نظيرها بالشرق ثوباً وجوهرًا، رغم اختلاف البيئة لأنّ السمات واحدة والبنية متماثلة.

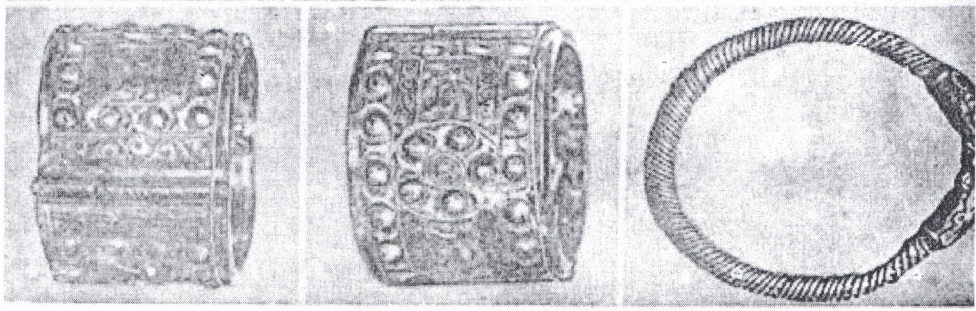
اللوحة -1-



2-1 : حلي من الطراز القوطي

Michel Kazanski, Les Goths, les 7 après j-c .pp105-106





3-4-5 : كنز لوشة ، حلي من الذهب والفضة، مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا،
404،405.

الهوامش:

(1) وصف جديد لقرطبة، مخطوط في جغرافية الأندلس، تحقيق حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد (1965م-1966م)، م13، ص181/ البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (2003م)، م2، ص129، 386 / المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار مبادر، بيروت (2004م)، ج1، ص143/ الحميري، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة (1937م)، ص183، 24 / ابن غالب الغرناطي، قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها، تحقيق عبد البديع لطفي، نشر مجلة معهد المخطوطات العربية، مصر (1956م)، م1، ج1، ص283/ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت)، ج1، ص244 / عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق العريان سعيد، محمد توفيق عويضة، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (1963م)، ص448

Ahmed Razi, La Description de L' Espagne, Provençal ,Al-Andaus ,Vol 12.Paris,1953.p66

(2) ابن الشباط المصري التوزري، قطعة من وصف الأندلس وصقلية من كتاب صلة السمط وسممة المرط، تحقيق العبادي أحمد مختار، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد (1967م-1968م)، م14، ص120/ الحميري، المصدر السابق، ص16، 24/ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة (د.ت)، م1، ص104/ الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت)، ص82، 95 / Razi , op;cit ,p66

(3) قطعة من فرحة الأنفس، ص282.

(4) تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الأفاق الجديدة، المغرب، ط1 (1993م)، ص73.

(5) القزويني زكريا بن محمد (ت682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص503.

(6) ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، ج2، ص44.

(7) المصدر نفسه، ص46.

(8) ابن حيان، المتقبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق محمود علي المكي، السفر2، قسم خاص بإمارة الحكم بن هشام (180-206هـ)، وإمارة عبد الرحمن بن الحكم (206-232هـ)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (د.ت)، ص256.

(9) الطاهري أحمد، عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط (1989م)، ص114.

(10) نوبصر حسن محمد، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة (د.ت)، ص341، 340.

- (11) ابن خلدون العبر، دار العلم للجميع، بيروت (د.ت)، ج4، ص 144.
- (12) محمد بن حارث بن أسد الخثشي القيرواني، قضاة قرطبة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط2 (1989م)، ص 64. / كونستبل أوليفيا ريمي، التجارة والتجار في الأندلس، تعريب عبد الله فيصل، مكتبة العبيكات، بيروت (2002م)، ص 304.
- (13) العذري، أحمد بن عمر، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الأهواني عبد العزيز، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد (1965م)، ص 11، 12.
- (14) ابن حيان، المقتبس، تحقيق بيدرو شالميتا، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط (1979م)، ج5، ص 244.
- (15) ابن عمر، يحيى بن عمر الأندلسي (ت289هـ/902م)، أحكام السوق، تحقيق محمود علي المكي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المعهد المصري، مدريد، 4 (1956م)، العدد 1-2، ص 104.
- (16) محمود حسن مني، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة، دار الفكر العربي، بيروت (د.ت)، ص 233.
- (17) ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق محمود علي مكي، السفر 2، ص 291.
- (18) محمود حسن مني، المرجع السابق، ص 233.
- (19) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (2002م)، م2، ص 581.
- (20) الطاهري أحمد، المرجع السابق، ص 106.
- (21) ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت (د.ت)، ص 49-197.
- (22) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص 38.
- (23) ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، ص 197.
- (24) جؤذر ومرسن من أكبر الفتية الصقالبة المقرين إلى الحكم المستنصر، خاصة وأن الخليفة قلدهم منصب عرفاء في دور الصناعة بالزهراء، وبعد وفاة الخليفة عارض جؤذر خلافة هشام المؤيد. فقتله المنصور بن أبي عامر. ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة دار صادر، بيروت (د.ت)، ج2، ص 387، 392/ ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق عبد الرحمن حجي، ص 119.
- دري الصغير من أشهر الفتيان الصقالبة في بلاط الحكم المستنصر' تولى حكم مدينة بياسة في بداية عهد الخليفة هشام المؤيد، ثم قتله المنصور بن أبي عامر. وهو الذي كان يتولى دار صناعة قرطبة. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 392.
- (25) مرزوق محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت (د.ت)، ص 173 / السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (1997م)، ج2، ص 143، 142/ تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (1985م)، ص 274.
- (26) ابن غالب، قطعة من فرحة الأنفس، ص 297.

- (27) المصدر نفسه، ص 299 / مجهول، وصف جديد لقرطبة، ص 176.
- (28) ابن غالب، المصدر السابق، ص 302 / ابن الخطيب، المصدر السابق، ج 2، ص 39.
- (29) البيان المغرب، ج 2، ص 375.
- (30) مرزوق محمد عبد العزيز، المرجع السابق، ص 173. ينظر اللوحة 1.
- (31) المرجع نفسه، الصفحة نفسها / السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ص 143، 142 / تاريخ وحضارة الإسلام، ص 274.
- (32) مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة السيد عبد العزيز سالم وعبد البديع لطفي، الدار المصرية، للتأليف والترجمة، القاهرة (1977م). ص 392. ينظر اللوحة 1.
- (33) ابن كردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري، تاريخ الأندلس، تحقيق العبادي أحمد مختار، مجلة معهد الدراسات بمدرية (1956م- 1966م)، ص 57.
- (34) نفح الطيب، ج 1، ص 569 / ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 345.
- (35) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2، ص 39، 40.
- (36) نقلا عن السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج 1، ص 402.
- (37) الفن الإسلامي في إسبانيا، من ص 414.
- (38) المرجع نفسه، ص 415.
- (39) وجدان علي نايف، سلسلة التعريف بالفن الإسلامي، ج 1 (الأمويون العباسيون، الأندلسيون)، الجمعية الملكية للفنون - الحميلة، عمان (د.ت)، ج 1، ص 178.
- (40) كونستيل أوليفيا ريمي، المرجع السابق، ص 291.
- (41) ينظر اللوحة 1، نماذج من الخلي القوطية.
- (42) Michel Kazanski, Les Goths, les 8 après j-c. E errance, paris, p95.
- (43) مانويل جوميث مورينو، المرجع السابق، ص 403، 406.
- (44) ينظر اللوحة 1.
- (45) نفسه، الصفحة نفسها.
- (46) نفسه، لصفحة نفسها.
- (47) نفسه، لصفحة نفسها.
- (48) نفسه، ص 403.
- (49) ابن السماك العاملي، الزهراء المنشورة في نكت الأخبار المأثورة، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد (1981م- 1982م)، م 11، ص 25.

(50) عقد الشفاء: كان من ذخائر الخليفة هارون الرشيد، لما وقع النزاع بين ابنه الأمين والمأمون، واستولى المأمون على الملك انتهب من خزائنها. ولأذ به العاثرون عليه بإبعاده إلى جزيرة الأندلس حيث أمنوا عليه، وبيع إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(51) البيان المغرب، ج2، ص 138 / السيد عبد العزيز سالم، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، بيروت، ط1 (1992 م)، القسم 2، ص 452.

(52) مانويل جوميث مورينو، المرجع السابق، ص 406.

أداة بلهوارى فاطمة
مديرة مخبر مصادر وتراجم
جامعة وهران 1